Issn:2437-0967 مجلة اللغة الوظيفية
المجلد9،العدد1
2202

البحث عن المنهج في دراسة النصّ القرآنيّ – جهود بنت الشّاطئ في الإعجاز والتّفسير –دراسة وصفيّة تحليليّة

Search for a method in the study of the Qur'anic text- the efforts of Bint Al-Shati in the miracle and interpretation - the study of descriptive analysis

د. جميلة قوجيل

جامعة البليدة 2 لونيسي علي(الجزائر)

• **dj.goudjil@gmail.com**

تاريخ الإرسال:2021/11/11	تاريخ القبول:2022/03/30	تاريخ النشر:2022/06/10

الملخص:

تسعى هذه المداخلة إلى تقديم جهود الباحثة والمفكّرة بنت الشاطئ، في رحلة بحثها عن المنهج في دراسة النصّ القرآني، من خلال عِلمين رحبين في الدّراسات القرآنيّة، هما التّفسير والإعجاز اللّذين كانا شغلها الشاغل،لتثبت باجتهاداتها أنّه مجال ليس حكرا على الرّجال، محصَّنةً بتكوينها القرآنيّ ومسيرتها العلميّة. وسنطرح لمعرفة هذه الجهود الأسئلة المنهجيّة واللّغويّة والفكريّة التي شغلتها في نظرتها إلى النصّ المبين، مواكبة ظروف عصرها التي كانت تستدعي نظرة جديدة تنهل من السّلف، لتمدّ أواصرها إلى الحاضر، فتُخرج دراسات الإعجاز من الطائفيّة والمذهبيّة، لتزوّدها برؤية معاصرة ضمن اتّجاهها الأدبيّ الفنيّ في التّفسير.

الكلمات المفتاحية: المنهج، النص القرآني ، عائشة عبد الرحمن، التفسير، الإعجاز البياني.

Abstract:

This research aims at presenting the efforts of researcher and mentor Bint Al-Shati in her research on the methodology in the studying the Quranic text through the science of interpretation and the science of miracles. In this research, we present the methodological, linguistic and intellectual questions that have been taken up by the beneficiaries of the studies

of the old and in keeping with the circumstances of their times with a new vision that led the studies of miracles from sectarianism and sectarianism within their artistic literary orientation in interpretation. We try to deal with these issues through two studies: the Qur'anic text and the problematic methodology, and the graphic miracles of Aisha Abdul Rahman .

key words: curriculum, Quranic text, Aisha Abdul Rahman, interpretation, graphic miracle

مقدمة:

حظيت عائشة عبد الرّحمن المعروفة ببنت الشاطئ بمرتبة الرّيادة وقصب السبق بين بنات جنسها في مجالات شتّى أهّلتها لتشتغل على مجالي التفسير والإعجاز موضوع هذه الورقة. فهي أوّل امرأة تحاضر بالأزهر الشريف، وتنال جائزة الملك فيصل في الآداب والدراسات الإسلامية.وثاني امرأة تشتغل بالصحافة وتكتب في جريدة الأهرام بعد الأديبة مي زيادة، حيث كان لها فيها بداية من العقد الثاني من عمرها مقال أسبوعي يصدر بصفة دوريّة.كما تفرّدت بالعضويّة في مجموعة من المؤسسات الإسلامية لم تمنح لامرأة غيرها مثل مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، والمجالس القومية المتخصصة [1].

تعدّ من بين النّساء القلائل اللّواتي شغلهنّ النصّ القرآني بحثا في إعجازه وتفسيره قديما وحديثا، فرغم دور المرأة في التفسير الذي لا يمكن إغفاله منذ صدر الإسلام ممثّلا في شخص عائشة رضي الله عنها،يرومها الصحابة منارة فيما أشكل عليهم من آي التّنزيل ، إلاّ أنّ العودة إلى بعض المؤلّفات المختصّة كطبقات المفسّرين للاستقصاء والتّتبّع عبر التّطور التاريخيّ لا تسفر عن أيّ اسم لنساء مفسّرات فيما اطّلعنا عليه[2]، عدا اسم امرأة مفسّرة ورد في معجم المفسّرين فيما نُقل عن معجم البلدان هي "ياسمينة بنت سعد بن محمد السيراوندي (ت 502 هـ / 1108م) واعظة، مفسرة، من أهل سيراوند (من قرى همذان). قال في معجم البلدان: سَمعتْ من مشايخ همذان والغرباء، وكانت واعظة ترجع إلى فضل من التفسير والأدب والخط، ثم تركت الوعظ وحجت وجلست في بيتها سنين، وكانت حسنة السيرة صدوقة ."[3]

ولهذه الريّادة والفضل اللّذين حازتهما بنت الشاطئ، نحاول أن نعرض لجهدها في هذا المجال من خلال مؤلَّفين أساسَين تجلّت فيهما رؤيتها. المؤلّف الأوّل هو " التفسير البياني" الذي يعتبر من أشهر التّفاسير في العصر الحديث [4]، وهو من جزأين فيما يقارب أربعمائة صفحة تناولت فيه بنت الشاطئ ثلاثة عشر سورة من جزء عمّ، إضافة إلى سورة القلم بتفسير مفصّل، عرضت فيه خلاصة قراءتها للسلف من المفسّرين مدقّقة ومناقشةً ومرجّحة بين الآراء، لتقدّم رؤيتها التّفسيريّة الخاصّة التي لا نُعنى فيها – في هذا

البحث – بمادّتها التّفسيريّة، وإنّما بمنهجها في دراسة القرآن من خلال المادّة اللّغويّة التّي ستكون جوهر رؤيتها للإعجاز .

أمّا المؤلّف الثاني فهو" الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق "[5]، وهو كما يظهره العنوان وفق علاقة العطف يتألّف من جزأين، الأوّل منه عرض لما جاء به علماء الإسلام في الإعجاز البيانيّ، وتفصيل لما تسمّيه تواضعا وتهيّبا " محاولة في الإعجاز البياني" ، وهو كتاب حديث في هذا المضمار إن لم يكن الأحدث حسب التّرتيب الزمنيّ التّصاعديّ لمصنّفات هذا اللّون من الإعجاز . ولعلّ من أهمّ خصائصه أنّه " لم تنح فيه المؤلفة منحى الوصف غير المعلّل، ولم يكن وصفها للإعجاز أكثر من توجيهها وتعليلها لخصائصه، كما هو الحال عند غيرها. بل إن قارئ هذا الكتاب يرى المؤلفة تذكر كثيراً من نصوص القرآن، ثم تقارن وتدرس وتنتهي إلى نتائج مسلمّة في كثير من الأحيان " . وأفردَتْ الجزء الثاني منه لمسائل ابن الأزرق لابن عبّاس بالتّحليل والدّراسة، ليشغل الكتاب ما يزيد عن ستمائة صفحة، تنمّ عن علم وافر وجهد في الاستقصاء، ونظر دقيق فيما أُشْكِلَ من المسائل.

ومن خلال تتبّع مسيرتها العلميّة –وفق منهج وصفيّ تحليليّ – نتساءل عمّا أفرزته التّجربة في الدّراسات القرآنيّة من رؤى تتعلّق بالمنهج المتّبع في التّفسير، وبمساعيها في الإعجاز البيانيّ على مستويي التّأصيل والتّأسيس تنظيرا وتطبيقا. نحاول أن نتتبّع هذه القضايا من خلال إضاءتين اثنتين للموضوع : النصّ القرآنيّ وإشكاليّة المنهج ، الإعجاز البيانيّ عند بنت الشّاطئ: البعد التّأصيليّ والبعد التّأسيسيّ.

2–النص القرآني وإشكاليّة المنهج عند بنت الشّاطئ:

حملت عائشة بنت الرحمن على عاتقها مسؤوليّة نقل النّكت الأسلوبيّة واللّمح البلاغيّة من كتب التّفسير إلى الدّراسة اللّغويّة الإعجازيّة ، فما من كتاب يرقى إلى استعمال الذكر الحكيم صوتا ومفردة وتركيبا ، وهو درس يكاد يغيب عن الجامعة في زمنها بشهادة بنت الشاطئ: "ونحن في الجامعة، نترك هذا الكنز الغالي لدرس التفسير، وقلّ فينا من حاول أن ينقله إلى مجال دراسات العربية التي قصرناها على دواوين الشعر ونثر مشهوري الكتّاب"[6]. وبذلك تمثّل مشروعُها في نقل التّفسير الأدبيّ للقرآن إلى الدرس البيانيّ. وبعد أن تقرّ بهذا الواقع تأسف – في إطار نقدها لواقع هذه الدّراسات –لعدم اعتماد منهج علميّ في هذا المجال: " وقلَّ منّا – نحن أساتذة العربية في الجامعات – من حاول أن يجعل من النص القرآني موضوعا لدراسة منهجيّة، على غرار ما نفعل بنصوص أخرى لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم في إعجازه البياني"[7].

استدعى موقف الرّفض لواقع الدّراسات القرآنيّة البحث عن بديل، ومنه سعت طيلة سنوات من حياتها لدراسة القرآن من النّاحيّة اللّغويّة والبيانيّة ، فكان البيان الطّريق نحو المنهج الذي تلقّت أصوله من أستاذها وزوجها أمين الخولي[8] بعد أن رأت فيه موافقة لعقلها ووجدانها وذوقها. كما وافق تنشئتها في بيت علم ودين وهذا ما أوضحته في قولها: " ألفت منذ الصغر أن أصغي بكلّ وجداني إلى هذا القرآن، وأن أتلو آياته في تأثّرٍ وخشوع، لكنّي لم أع بيانه حقّ الوعي، إلا بعد تخصّصي في دراسة النّصوص، واتّصالي بأصيل ما للعربيّة من تراث أدبيّ، فكنت كلّما ازددت تعمّقاً في الدّرس، وفقهاً للعربية، وقفتُ مبهورة أمام جلال هذا النصّ المحكم، وعدت أتلو من معجز آياته ما أدركت معه لماذا أعيى العرب وهم أصحاب الفنّ القوليّ"[9].

إنّ المنهج المتّبع في التّفسير قبل ربع قرن –كما تشهدّ بذلك بنت الشاطئ – تقليديّ أثريّ يقف عند ما وصل إليه المفسّرون الأوائل، إلى أن تغيّر منحاه على يد أمين الخولي الذي يُصنَّف تفسيره ضمن التفسير الأدبيّ ذي الوجهة النّفسيّة[10]، حيث أضفى عليه طابعا أدبيّا فنيّا. وفي هذا القول توضيح لرؤيته للتّفسير: " فجملة القول: أنّ التفسير فيما أفهمه هو الدراسة الأدبيّة الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع، والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بأي اعتبار، وراء ذلك... وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه ، هذه هي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه"[11]. على الرّغم من هذا التّغيّر إلاّ أنّه ظلّ رهين مادّة التّفسير، وبنت الشاطئ تريد له أن ينتقل إلى الدّرس البيانيّ ويُستغلّ أحسن استغلال، وهذا ما شغلها في كتابها " الإعجاز البيانيّ".

دعت بنت الشاطئ إلى تبنّي الجامعة لدرس قرآنيّ ممنهج يقوم على الاستقراء. وفي هذا المقام يظهر تأثّرها بمنهج ابن عبّاس الذي يستقرئ مفردات القرآن ومعانيها ليوضّح استعمالاتها مستشهدا بموافقة ذلك لأشعار العرب. ولا تكتفي بمجرّد الدّعوة إلى هذا المنهج، وإنّما تؤكّد وتلحّ على أنّه الخطوة الأولى لكلّ درس في القرآن حتّى وإن كان الغرض فقهيّا مثلا، فإنّ الدّارس مطالب بالتّهيّؤ لفهم مفرداته وأساليبه وفق حدود الاستقراء: استقراء للفظ القرآنيّ في مواضع تكراره للوقوف على دلالاته، واستقراء للتّعبير والظّاهرة الأسلوبيّة من خلال نظائرها في سياق الآية والسّورة والقرآن ككلّ وتبيان لطائفها البيانيّة. وعلى هذا المنهج قام تفسيرها البيانيّ، روحُه العربيّة، وحَكَمُهُ الأسلوب الرّبانيّ خارج التّأويلات المذهبيّة والطّائفيّة والمَلاحِظ المتعسّفة[12].

تشرع بنت الشّاطئ في تفسيرها مستهلّة السورة بذكر التّسميّة وأسباب النّزول، لتستقرئ في مناحٍ عديدة الألفاظ والتّراكيب حسب ورودها في القرآن، فتحصر دلالاتها حتّى تكون سندها في التفسير في سياق

السورة الخاصّ وسياقها العام مبدية بيان الذكر الحكيم. ولعلّ من أهمّ الظّواهر الأسلوبيّة التي أسفر عنها المنهج الاستقرائيّ خروج أسلوب القسم في الآية الأولى من سورة الضّحى عن الوضع اللّغويّ وهو التّعظيم إلى معنى بياني حيث تلفت الواو لفتا واضحا إلى حسيّات مدركة مألوفة لا غرابة فيها توطئةً إيضاحيّة لغيبيات غير مدركة حسيّا.

ويقف بها هذا المنهج الاستقرائيّ إلى ما يشبه القاعدة الاستعماليّة لأسلوب القسم في القرآن، وهو ما لم يصل إليه رجل مفسّر تحت سيطرة معنى التّعظيم الشّائع. تقرّ بذلك بنت الشاطئ في قولها: "وهذا البيان المعنويّ بالحسيّ، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو، فتقبلها دون تكلّف أو قسر في التأويل... هذا هو ما نطمئن إليه في التفسير البياني للقسم بالضحى والليل إذا سجا، ولا أعرف – فيما قرأت – أحداً من المفسرين التفت إلى هذا الملحظ التفاتاً واضحاً متميزاً، وإن يكن بعضهم قد استشرف له من بعيد، لكن وسط حشد من تأويلات شتى، لا تخلو من تكلّف وإغراب"[13].

كما كان من نتائج المنهج الاستقصائيّ في البيان القرآنيّ ما خلصت إليه عن الفعل "رأى" المسبوق بهمزة الاستفهام مطّردا على شكل ظاهرة أسلوبيّة. توضّح ذلك بنت الشاطئ قائلة: " هي إذن ظاهرة أسلوبيّة، كان ينبغي أن تلفت إلى وجه في البيان العربيّ يستغني عن المفعول الثاني لـ "رأى" حين تقترن بهمزة الاستفهام في الخطاب، فلا نشغل بالتماس هذا المفعول الثاني خضوعاً للصنعة النحويّة، بل أولى منه أن نتدبر سرّ هذه الظاهرة الأسلوبيّة ..."[14] إلى غيرها من النّتائج التي أفرزها المنهج الموضوعي الاستقرائي بما يقوم عليه من صرامة منهجيّة لا تسمح بتفسير لفظة أو عبارة أو الحديث عن موضوع دون تتبّع تامّ ودقيق لوروده في القرآن الكريم ، فتتناول مفرداته وظواهره الأسلوبية من خلال النظر في الأشباه والنّظائر وفي السياق الخاص والعام للذكر الحكيم مراعية التّناسب بين آي التّنزيل مع ما تضفيه بنت الشاطئ على الاستقراء من ملمح بيانيّ فنيّ [15].

3-الإعجاز البياني عند بنت الشاطئ :

يرجع الاهتمام بالإعجاز البياني إلى دراسات العرب الأوائل، وهو صفة اصطبغت بها الجهود المبذولة في القرن الرابع الهجري، وإن لم تخل الدّراسات السابقة من هذا الملمح ، ولم ينقطع هذا الاهتمام عن أذهان الدّارسين ، ولم تخل منه صفحات مؤلّفاتهم على اختلاف رؤاهم إلى غاية العصر الحديث. وإنّما يكمن فضل عائشة بنت الشاطئ فيما أفردته له من مصنّف خاصّ وسمته بـ" الإعجاز البيانيّ" وقد تناثرت

الدّراسات قبلها بين طيّات الكتب، ولم تُجمع في بحث مستقلّ يضع الرؤية البيانيّة الإعجازيّة نصب عينيه وهدفه من التّأليف . يقول حنفي محمّد شرف في مقدّمة كتابه الذي تتبّع فيه هذا المنحى وهذه الرّؤية في دراسات السابقين تتبّعا تاريخيّا: " ... فكرة الإعجاز البيانيّ في القرآن تناولها علماء كثيرون قدماء ومحدثون، إلاّ أنّ أكثر هذه الدّراسة كان بعضها بحوثا متناثرة في ثنايا كتبهم ، ولم أر من خصّص كتابا لهذا الموضوع "[16]. نضيف إلى هذا الفضل الذي حازته المؤلّفة فضلا آخر نستقيه ممّا ختم به حنفي محمّد شرف دراسته في قوله : " والذي لاحظته أثناء هذا التطواف، وتلك المقابلات أنّ أكثر علماء الإعجاز درسوا البلاغة العربية وأرّخوا لها وطوّروا دراستها؛ لأنّهم كانوا مؤمنين بأن دراسة البلاغة وسيلة لغاية أسمى،وهي إعجاز القرآن البياني، ويمكن التأكد من هذا بالرّجوع إلى مقدّمات مؤلفاتهم في البلاغة التي كثيرا ما يُصرّحون فيها بهذه الملاحظة التي أشرت إليها" [17].في حين أنّ الدّراسة الحديثة للإعجاز البياني في القرن الرابع عشر الهجري على يد عائشة بنت الرحمن كانت غاية في حدّ ذاتها مستفيدة من تجربتها في التّفسير وهي الباحثة التي انبهرت بالكنز العظيم في مؤلفات المفسّرين وأَسِفَتْ لعكوف الدراسات اللّغويّة عنه إلى دراسة الدّواوين الشّعريّة لاستجلاء بيانها وجمالها اللّغويّ والقرآن منبع البيان في تراث الفصحى كلّه،وهو ما أوضحناه فيما سبق من حديثنا عن رؤيتها الاجتهاديّة حول المنهج[18].

تفتتح بنت الشاطئ مؤلّفها بإبداء تهيّبها من الخوض في هذا المجال ، ومرد ذلك إلى أمرين اثنين: صعوبة الموضوع ودقّته ، ورؤية المجتمع لامرأة تخوض غمار مجال اختصّ به الرّجال، ولولا عاملان اثنان لأحجمت عن هذه المغامرة . يتمثّل العاملان في تنشئتها الدينيّة وكونِها من بيت علم ودين ،حيث كان والدها مُدرّسا بالمعهد الديني بدمياط، وجدّها لأمّها شيخا بالأزهر الشريف . أمّا العامل الثاني فتمثّل في معرفتِها بما حظيت به المرأة في الإسلام من تقدير واعتراف بدورها . تقول بنت الشاطئ: "لولا نسب لي في الشيوخ عريق، لتهيّبْتُ التّصدي لهذا الموضوع الدقيق الصعب الذى توارد عليه أئمةٌ من علماء السلف أفنوا أعمارهم في خدمة القرآن الكريم، وقدّموا إلى المكتبة الإسلامية ثمار جهودهم السخيّة الباذلة. ولولا ما أعلم من مكانة جليلة للمرأة المسلمة في تاريخنا، لأحجمت عن التقدّم إلى هذا الميدان الجليل، إشفاقا من أن يُنكر مكاني فيه..."، ثمّ تُبيّنُ علا أخرى لإقدامها موضّحة ما تستند إليه، وعليه تتّكئ اتقاء للزلل والتّأوّل والسّطحيّة . تقول بنت الشاطئ : " مع الكتاب المعجزة عشت عمري كلّه، وفي المدرسة القرآنيّة كانت تلمذتي الطويلة التي تولاها أبي في مراحلها الأولى. وإليها انتهى تخصّصي في الدّراسة – العليا التي وجّهني إليها أستاذي

الإمام "أمين الخولي"، وظلّ لمدى ثلث قرن يقود خطاي على الطّريق الشاق، ويحميني من عثرة الرأي ومزالق التأويل وسطحيّة النظر، ويأخذني بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لا يجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها في الكتاب المحكم، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيّا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبيّة، دون استيعاب لنظائرها وتدبر سياقها الخاصّ في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كلّه" [19].

لفت الاشتغالُ بالتّفسير البيانيّ المؤلّفةَ إلى قضيّة الإعجاز البيانيّ دون أن تقصد إليها قصدا في بداية رحلتها العلميّة مع القرآن، فانكشفت لها أسراره بين آيه الكريمة وكيف أخرس العرب وهم أهل البيان بعد التّحدّي ممّا وجّهها إلى دراسة ممنهجة لاستجلاء عجزهم تنبع من القرآن نفسه.

عرضت بنت الشاطئ في فاتحة الجزء الأوّل لقضيّة تناول الإعجاز في دراسات الأوّلين بدءا باستقلالها بالدّرس في القرن الثالث للهجرة إلى أن تأصّلت على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس، لتتوالى دراسات الإعجاز إلى العصر الحديث. وأهمّ ما سجّلتْه على هذه الجهود – خارج نطاق قيمتها العلميّة – أنّها لم تخرج عن حدود الخصومة المذهبيّة والفكريّة ودوّامة الصراع المذهبيّ والجدل الكلاميّ ممّا يشين لروّاد هذا المجال ، رغم اتّساع صدر الموضوع ورحابة غماره فلا ينضب معينه عبر الأجيال ولا تنقضي عجائبه على كرّ الزّمان ، ثمّ توضّح إسهامها دون أن تغفل جهود السابقين:" لعلّ من إعجاز القرآن أن تظل الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل، وهو رحب المدى سخيّ المورد، كلّما حسب جيل أنّه بلغ منه مبلغاً، امتد الأفق بعيدا وراء كلّ مطمح وفوق كلّ طاقة ...ومع إدراكي أنّ الإعجاز البيانيّ للقرآن يفوت كلّ محاولة وجهد، أتقدّم في خشوع إلى الميدان الجليل فأضع إلى جانب محاولات السلف الصالح، ما هدى إليه عكوفي الطويل على تدبر كلمات الله، من وجهٍ في هذا الإعجاز" [20] .

إنّ محاولة بنت الشاطئ في الإعجاز البياني محاولة ممنهجة تقوم على الاستقراء الموضوعي (نسبة إلى الموضوعات)، وتنحو منحيين اثنين يستدعيهما كلّ بحث علميّ متجذّر ورائد : منحى تأصيليّ ومنحى تأسيسيّ حتّى تلبس محاولتها عباءة الشّرعيّة العلميّة، فتكشف عن جذورها وامتداداتها التّاريخيّة، وتأخذ بحظ السبق إلى هذا المضمار بما أفردته له من مصنّف مستقلّ بهذا الغرض تقصد إليه قصدا فيكون غايتها ومبتغاها .

3-1-المنحى التّأصيليّ للإعجاز البيانيّ عند بنت الشاطئ: سعت المؤلّفة إلى البحث في أصول هذا اللّون من الإعجاز من خلال :

- دلالتي الأحوال والأقوال في زمن النّبوّة :

تأصّل بنت الشاطئ لبيان الإعجاز عند العرب القدامى، فتثبت تحقّقه منذ البعثة مستشهدة بدلالة أحوالهم وأقوالهم ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة فـ" قضية الإعجاز البياني بدأت تفرض وجودها على العرب من أوّل المبعث، فمنذ تلا المصطفى عليه الصلاة والسلام في قومه ما تلقى من كلمات ربّه، أدركت قريش ما لهذا البيان القرآنيّ من إعجاز لا يملك أيّ عربي يجد حسَّ لغته وذوقها الأصيل، سليقة وطبعًا، إلا أن يسلم بأنّه ليس من قول البشر"[21]. وهذا ما تجلّى في إسلام عمر بن الخطّاب وجبير بن مطعم وسعد بن معاذ وغيرهم. وتستند في تأكيد ذلك إلى تعليل الباقلاني لإعراض البعض وتأخّر إسلامهم مناقشة رأيه الذي يقول فيه: " فكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم من قلّت شبهه، وتأمّل الحجّة حقّ تأمّلها ولم يستكبر فأسلم. ومنهم من كثرت شبهه، أو أعرض عن تأمل الحجة حقّ تأملها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله، فلذلك وقف أمره. ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافقوا إلى القبول جملة واحدة " [22].

وسوّى الباقلاني بين العربي الذي لم يبلغ من الفصاحة المرتبة العليا، والأعجميّ في عدم إدراك الإعجاز فيما جاء في فصل عقده في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن : " إنّ من كان من أهل اللسان العربي – إلا أنّه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرّف اللّغة، وما يعدّونه فصيحاً بليغا بارعاً من غيره – فهو كالأعجميّ في أنّه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلاّ بمثل ما بيّنا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللّسان سواء. فأمّا من كان قد تناهى في معرفة اللّسان العربيّ، ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة "[23].

تخالف بنت الشاطئ الباقلاني فيما ذهب إليه في استواء حالهما فتردّ قائلة: " وفي هذا الكلام نظر، من حيث أنّ العرب في عصر المبعث فصحاء، وهم وإن تفاوتوا في مراتب البلاغة والاقتدار على فنّ القول، وتميّز منهم خاصة من خطباء بلغاء وشعراء فحول، فما كانوا بحيث يغيب عنهم جيد القول من

رديئه، وعاليه من هابطه، أو يفوتهم حِسُّ لغتهم في ذوقها وبيانها. شأنهم في هذا شأن "أم جندب": لم تُعرف لها مشاركة في قول الشّعر ولا كان لها حظ منه، ولكنّها بحسها اللغويّ المرهف سليقة وطبعاً، استطاعت أن تميز مواضع الضعف والقوة في قصيدتي امرئ القيس وعلقمة بن عبدة الفحل في وصف الخيل. فعامة العرب في عصر المبعث، مهما يتفاوتوا في البلاغة والاقتدار على فنّ القول، كانت لهم هذه الحاسة النقدية التي أرهفتها سليقة لغوية أصيلة لم تفسد. وأرى الباقلاني قد خلط هنا بين الفصاحة وبين القدرة البلاغيّة" [24] حيث الفصاحة صفة عامّتهم قبل اختلاطهم بالأعاجم أمّا القدرة البلاغيّة فهي تتفاوت بينهم، وهي على مراتب ومستويات.

كما تفرّق بنت الشاطئ– انطلاقا ممّا سبق –بين المعجزة والتّحدّي اللّذين لم يميّز بينهما الباقلانيّ، فإنّ المعجزة القرآنيّة يدركها عامّة الفصحاء من العرب، وأمّا التّحديّ فهو موجّه إلى خاصّتهم. وهنا يظهر الفارق بين الفصاحة والمقدرة البلاغيّة فـ" الشاعر العربي كان يقول قصيدته فيتلقاها جمهور المستمعين بالإعجاب والتقدير أو الصدّ والتّهاون. وأمّا أن يعارضها آخر منهم، فذلك محصور في أقرانه من الشعراء لا يعدوهم إلى عامة القوم" [25].

وتمضي عائشة عبد الرحمن في التّأصيل لهذا الضرب من الإعجاز بتأكيد الانبهار ببيانه ليس في ردود أفعال السابقين بالإيمان فقط، بل حتّى عند المنصرفين عنه فيما رواه ابن إسحاق في سيرته من حال أشراف قريش: أبو سفيان بن حرب الأموي، وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق في القصّة المعروفة عن استماعهم للقرآن ليلا دون أن يعلم أحدهم بالآخر فيجمعهم الطريق كلّ ليلة فيتواعدون أن لا يعودوا إلى ذلك ، غير أنّ سحر القرآن يعيدهم إلى بيت النبيّ ثلاث ليال متواليات، وغيرها من نماذج المعاندين في تأثّرهم ببيان الذكر الحكيم التي لا يسمح المقام بتفصيلها .

ومن دلائل إعجازه البياني في زمن البعثة المحمّديّة – فيما تسوقه من تأصيل للمفهوم – أن شبّه العرب أثره في النّفوس بأثر السحر والشعر وسجع الكهانة، لذا تطرح هذين التّساؤلين اللّذين تشرك فيهما القارئ[26]: " لِمَ جاءت معجزة النبيّ العربيّ بهذا البيان الذي تعلق المشركون في وصفه بالشّعر وبالسحر والكهانة، لِما رسخ في يقينهم من سلطانه الذي لا عهد لهم بما يشبهه في كلام البشر، إلاّ أن تكون أخذةَ السحر وأسرَ الشعر وسيطرة الكهانة؟ ولم لم يؤيد الله رسوله المصطفى بآية من مثل ما جاء به الرسل الأوّلون كما اقترح الكفار من قومه وهم يحادّونه ويجادلونه؟"

تستند في تدليلها إلى ما ذهب إليه الشريف المرتضى في " طيف الخيال " من ارتباط المعجزة القرآنية التي كانت وحيا بمكانة البيان عند العرب، وتلحظ بنت الشاطئ أنّ معجزات الأنبياء ترتبط بتدرج البشرية من حالة البدائية إلى عصر رشد الإنسان فتكون موافقة لزمانهم بما يؤكّده تاريخ الأديان المقارن، فكان عهد النّبوّة المحمّدية العهد التي تخلّصت فيه البشريّة من عصر السحر في عهد موسى عليه السلام وعصر الخوارق والبطولات وتعدّد الآلهة في عصر عيسى عليه السلام ،فكان اقتراب الإنسانيّة من الرّشد[27] فشرّفت الرّسالة المحمّديّة بمعجزة لغويّة بيانيّة خالدة على مرّ الزّمان واختلاف المكان. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[28].

- الوجه البلاغيّ عند دارسي الإعجاز والبلاغيين :

تمضي بنت الشّاطئ في مسعاها مؤصّلة لهذا الضرب من الإعجاز، فيما تؤكّده من اتّفاق علماء الإسلام من السّلف حول الإعجاز البلاغي رغم اختلاف رؤاهم في وجوه الإعجاز حتّى من قال منهم بالصّرفة، سواء أكان من المعتزلة بعد الجيل الأوّل من شيوخهم، أو من المستوعبين لمذاهب المتكلّمين، فكانت الصّرفة وجها من الوجوه لم ينف القول بالإعجاز البلاغيّ[29]. وتستدلّ بما يراه الخطابي والقاضي عبد الجبّار من ذكرهما لاستحالة أن يكون الإخبار بالغيبيات هو وجه الإعجاز لعدم تحقّقه في كلّ سور القرآن، وإنّما هو نوع من الأنواع ووجه من الوجوه، ومكمن المزيّة في القرآن في حدّ ذاته، فهو معجز بنفسه[30].

وقد ذكر الباقلانيّ ثلاثة وجوه من الإعجاز: الأوّل هو الإخبار بالغيبيات، والثاني ذكر سير الأنبياء والقصص الدينيّ رغم أُميّة الرّسول أمّا الثالث فهو بلاغته، " ولمّا كان الباقلاني من علماء اللّغة والأدب والبلاغة، فقد ركّز شرحه على هذا الوجه الأخير، فتحدّث عن جمال نظم القرآن حديثا مسهبا يتضح منه مفهومه ونظريته في إعجاز القرآن. إنّه لم يرض أن يترك هذا الوجه دون أن يحدّد قسماته ويبيّن معالمه، ويوضّح سماته، وما عناه بالنّظم، من هنا وجدناه يحلّل هذا الوجه البلاغي تحليلا دقيقا" [31].

تؤكّد بنت الشاطئ أنّ الإعجاز البلاغي هو الغالب عند الدّارسين للقرآن " والواقع أن المصنّفات الأولى في الإعجاز، على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغيّة ممّا قدّروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابي السني، والرماني المعتزلي، والباقلاني الأشعري تأخذ مكانها في المكتبة البلاغية. وبعد أن استقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجّهت

إلى خدمة الإعجاز البلاغي..." [32]. تعدّد المؤلّفة أسماء الدّارسين وعناوين مؤلّفاتهم، مدلّلة على فكرتها بما تستشهد به في ترتيب تصاعديّ لتبلغ العصر الحديث، فتذكر تفسير محمّد عبده الذي استهلّه بإعجاز أسلوبه ونظمه وبلاغته، ثمّ تلاه ببقيّة الوجوه [33].

بعد أن تبيّن الباحثة الإجماع على إعجاز البيان القرآني وتدلّل عليه، تشرع في تقديم وتفصيل الآراء البلاغيّة عند دارسيه تتتبّعُ خطواتهم على الطّريق تتزوّد منها في فهمها للإعجاز البياني، لتكون الأرضيّة التي تبني عليها مؤلّفها، كإسهامات الخطّابي والرّمّاني اللّذين وإن ذكرا وجوها أخرى للإعجاز إلاّ أنّهما أوليا عنايتهما بالجانب البلاغي، فبيّنا موضع المزيّة البلاغيّة وقسّما البليغ من الكلام المحمود إلى طبقات. وقد ذكر الرّمّاني جهات سبعا للإعجاز وفق ترتيب معيّن إلاّ أنّه أولى عنايته للوجه البلاغي غير ملتزم بترتيب الأوجه الإعجازيّة الأخرى[34].إلى غيرها من الإسهامات عند الباقلاني والقاضي الجبّار والجرجاني وغيرهم. وكانت بنت الشاطئ في خضم ذلك تعرض الآراء وتناقشها ، مبيّنة للمواطن التي تختلف فيها مع أصحابها وقائليها، بعين ثاقبة وعقل مدقّق مستنبط لما يكون سندا لها في رؤيتها التّأسيسيّة اللاحقة، كاعتمادها لتقسيم الطّبقات في حديثها اللاحق عن " التّرادف وسرّ الكلمة " [35] ، فلا تغفل جهد السابقين. وتحملها الأمانة العلميّة والحرص على جوانب استيفاء الموضوع أن تقول خشية الإثقال على القارئ " وما استكثرتُ من نقل آراء الباقلاني في بلاغة القرآن بنصّ عبارته، إلاّ حرصاً منّي على أن يأخذ بها موضعه من قضية الإعجاز البلاغيّ لا أظلمه " [36]. والعين النّاقدة وسيلتها في هذا التتبّع، من ذلك قولها عن المنحى التّطبيقيّ في جهد عبد القاهر الجرجاني : " لكنّا نختلف مع الجرجاني، في أن تُلتمس أسرار البيان العربي في شعر الشعراء ونثر البلغاء، ولا تلتمس في النص الأعلى الذي لا يمكن أن يصحَّ لنا ذوق العربية بمعزل عنه. وإذا كنّا نأخذ على المتأخرين من علماء البلاغة، التماسهم ملاحظها وشواهدها من النماذج الشعرية والنثرية التي أرضت ذوقهم، وكان ينبغي أن يجتلوا بلاغة العربية في كتابها الأكبر، فكيف يهون أن نتناول مباحث البلاغة بمعزل عن القرآن الكريم، في كتاب يقدم هذه المباحث مدخلاً لفهم النظم القرآني ودلائل إعجازه؟!" [37].

إنّ التّطواف بدراسات الإعجاز، وتتبّع سياقاتها وغاياتها ورؤاها ووسائلها إلى العصر الحديث، جعلها تلاحظ في خاتمة هذا المبحث هيمنة الجرجاني على المحدثين، كما هيمن السكاكي على البلاغيين المدرسيين، وهي هيمنة أسقطتهم في مطبّة عدم تجاوز التّأثر النّفسيّ كما وقع فيه سابقا الخطّابي ، فـ "ظلّ

الإعجاز البلاغيّ مع ذلك، يدور في هذا النّطاق من القوالب التقليديّة الصمّاء والعبارات المضخّمة التي لم يجد فيها مثل الخطابي، من القرن الرابع، ما يقنع في هذا المجال أو يشفي من داء الجهل، والتي لم تعد تليق بحرمة الكتاب المعجز، ولا تقدم شيئاً ذا بال، إلى هذا الجيل من أبناء العربية الذين نحرص على أن نصلهم بمعجزة البيان الأعلى"[38]. إنّ هذه الهمّة العاليّة التي تحلّت بها بنت الشاطئ، وما تسلّحت به من أدوات، وتتبّع تاريخيّ للموضوع، كانت حوافز لها لتمضي نحو التّأسيس لرؤيتها، لا تثنيها عقبة .

3-2-البعد التّأسيسيّ عند بنت الشاطئ : محاولة في فهم الإعجاز البيانيّ

تبدي الباحثة تواضعها وهي تخطّ محاولتها في فهم الإعجاز من وجهة بيانيّة، لتحتلّ حيّزا إلى جانب محاولات السلف . هذه المحاولات التي لم تنكرها كما وقع في ذلك الدّارسون من قبلها تحت وطأة الاختلاف المذهبي والطائفيّ، ثمّ تمضي بعد مرحلة التّأصيل لتؤسّس لما سمّته تواضعا "محاولة في فهم الإعجاز البياني"، وهي تضع بين ناظريها ملاحظة أدركتها بالاطّلاع على جهد السّابقين، هي اشتغال البلاغيين عن الإعجاز الذي كان منطلقهم بمباحث البلاغة والتّأسيس لعلومها والتّقعيد لها ، حتّى تتقي هذه العثرة التي وقع فيها السلف. وهي محاولة ذات ملامح صوتيّة وإفراديّة وتركيبيّة، نتبيّنها في أسرار الحرف والكلمة والتّعبير.

-فواتح السّور وسرّ الحرف :

تبسط بنت الشاطئ مختلف الآراء والاجتهادات التي ذهب إليها الدّارسون السّابقون في الحروف المقطّعة، وترى أقربها إلى رؤيتها البيانيّة ما قال به مجموعة من المفسّرين واللّغويين كالطبري وابن كثير والزّمخشريّ والرّازي ، من كونها تحدّيا لفصحاء العرب وبلغائهم على أن يأتوا بمثله، وهو على أصواتهم وحروف هجائهم ، وقد نقله من المحدثين محمّد عبده ومحمّد رشيد رضا ، ولا تكتفي بانتقاء ما تراه بعيدا عن تكلّف التّأويل، بل تتدبّر في هذه الفواتح لعلّها تضيف شيئا ذا بال – على حدّ تعبيرها –وتأخذ برأي الرازي القائل بورود هذه الحروف في سور تفتتح بآيات ذكر القرآن أو الكتاب أو التّنزيل . وتأخذ بما قرّره ابن كثير متخذة الاستقراء سبيلا لهذا الحكم، حيث " أنّ كلّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه. وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، وهو استقراء كامل كما ترى، وان اكتفى "الحافظ" بأن استشهد بسبع مبتدئة بالفواتح، ومعها مفتتح ثلاث سور من الحواميم ."[39]

ويقف بها الاستقراء الدّقيق وربطه بسياق السّور ومواضيعها إلى القول :" وهذا ما لم ينتبه إليه السيّد رشيد رضا، كما فات الرازي أن يلحظه فقَيَّدَ ذكر القرآن بأوائل السور، ومن ثم تخلّفت سور مريم والعنكبوت والروم، مفتتحة بالحروف المقطعة، لا يتلوها ذكر الكتاب أو القرآن والتنزيل"[40] .ولا تكتفي بذلك، بل تسعى إلى مزيد بيان واكتشافٍ في هذا المضمار بقولها :" ماذا عسانا أن نضيف إلى هذا الملحظ الهام الذي يتصل اتصالاً قوياً ومباشراً، بما يشغلنا من أمر الإعجاز البياني؟ " [41]. تتلوه بما يوضّح منهجها المتّبع : " يتجه منهجنا ابتداء، إلى استقراء كامل لجميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة، مرتّبة على حسب النزول. وهي محاولة لا أعلم أن أحداً ممّن قرأت لهم في هذه الفواتح قد اتجه إليها، مع أنها التي يمكن أن تهيدنا إلى ملحظ مشترك في هذه السور جميعاً، مأخوذ من تدبر سياقها وفهم طبيعة المقام الذي اقتضى إيثارها بهذه الفواتح، مرتبطاً بسير الدعوة عصرَ المبعث ونزول آيات المعجزة " [42].

تشرع في تتبّع نماذج السور موضّحة السرّ البيانيّ في سورة القلم وهي أوّل سورة حسب ترتيب النزول في قولها :" ومجيء الحرف (ن) في سورة القلم المكية المبكرة، فيه لفت واضح إلى سرّ الحرف في البيان المعجز: فمن حيث يجادل المشركون في القرآن ويحملونه على أساطير الأولين، يبدأ الاحتجاج للقرآن بأن يعرضوه على ما عرفوا منها، وإن كلماته لمن الحروف التي عرفوها. ونربط هذا الاحتجاج للمعجزة في سورة ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ بما نزل قبلها مباشرة في مستهل الوحي، وقد كانت كلمته الأولى: "اقرأ" وفيها لفت إلى آية الله الكبرى في الإنسان، خلقه الله من علق، وعلم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم. فكأنّ نزول سورة القلم بعدها مبتدؤه بحرف (ن) يلفت إلى سر الحرف الذي هو مناط القراءة والعلم والبيان، تنطق به في حروف التهجي، منفرداً منقطعاً فلا يعطي أي معنى أو دلالة، وما يخرج عن مجرد صوت ثم يأخذ الحرف موضعه من الكلمة فيتجلى سرّه الأكبر"[43]. إلى أن تستقرئ كلّ فواتح السّور بين العهدين المكيّ والمدنيّ، فتخلص إلى مجموعة من النّتائج تزيد الإعجاز البيانيّ تجلّيًا على مستوى الحرف حيث كان به التّحدّي على أن يأتوا بمثله، وهو من حروف هجائهم في بداية الوحي إلى أواسط الفترة المكيّة حيث بلغ التّحدّي والجدل أشدّه ، وكان الاحتجاج للقرآن ودحض دعاوي المجادلين فيه في كلّ سورة استهلّت بالحروف المقطّعة .وفي هذه الفترة كثر هذا النّوع من السور مع بلوغ المشركين في اتّهامهم الرسول بالسّحر والكهانة والافتراء أوجّه، وكانت بداية العهد المدنيّ بنزول آية البقرة التي تميّزت بحسمها لهذا الجدل بعد عجزهم

على أن يأتوا بسورة مثله ، فأظهر هذا التّتبّع الاستقرائيّ دلالة هذه الحروف ليس في انعزالها، وإنّما في سياق نزولها[44] .

تختتم بنت الشاطئ قضية فواتح السور بقولها: " هكذا وقفتُ أمام فواتح السور، فكانت اللمحة المضيئة لسرّ الحرف. وما أعجب سرّه: وبها نزلت آيات المعجزة البيانية، فتجلى سرّ الكلمة في البيان الأعلى الذي أعيا العربَ أن يأتوا بسورة من مثله، والحروف التي يتألف منها مبذولة لهم في لغتهم التي نزل بها القرآن كتاباً عربياً مبيناً " [45]. كما قدّمت شواهد قرآنيّة على سرّ الحرف مؤكّدة رؤيتها للإعجاز البيانيّ على غير ما رآها اللّغويّون والبلاغيّون الذين عدلوا عن هذه اللفتات لما يوائم قواعد النّحو والمنطق البلاغي المدرسيّ، كدلالة حرف الباء الزائدة في رؤية النّحاة، ممّا يأباه البيان القرآني معتمدة في إقرار ذلك منهجها الاستقرائيّ [46].

-دلالات الألفاظ وسرّ الكلمة :

تذكر بنت الشاطئ في هذا المقام قضيّة الترادف، ومن قال بها ومن رفضها، وتوضّح أنّ المنهج الاستقرائيّ أكّد دقّة المفردة القرآنيّة في سياقها، ممثّلة باستعمالها في الشعر ثمّ القرآن كالرؤيا والحلم ، والنّأي والبعد والخشوع والخشية ...ومجموعة أفعال كـ: أنس وأبصر ، وحلف وأقسم باستقراء مواضع الاستعمال التي تؤكّد امتناع التّرادف، وتعترف في هذا المقام بالقصور عن إدراك الاختلافات البيانيّة لهذه المفردات: " وقد ينبغي لي أن أعترف هنا بقصوري عن لمح فروق الدّلالة لألفاظٍ قرآنية تبدو مترادفة، فليس لي إلاّ أن أُقرّ بالعجز والجهل، وأنا أتمثّل بكلمة ابن الأعرابي: "كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كلّ منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نُلزم العربَ جهلَه"[47].

-الأساليبُ وسرُّ التعبير:

تلتفت الباحثة إلى بعض الظواهر الأسلوبيّة في البيان القرآني كظاهرة الاستغناء عن الفاعل، وقد كان الحديث عنها ملاحظات متناثرة في دراسات السّابقين، فكان فضل عائشة عبد الرحمن أن جمعتها للكشف عن سرّها، كظاهرة الاستغناء عن الفاعل في موقف القيامة، والابتداء بواو القسم وفق منهجها الذي اعتمدته . تقول بنت الشاطئ :" والذي اطمأننت إليه بعد طول التدبر لسياقها في الآيات المستهلة بالواو، هو أن هذه الواو قد خرجت عن أصل معناها اللّغويّ الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي هو اللفتُ بإثارة بالغة إلى حِسّيات مُدرَكة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيانِ معنوياتِ مُمارَى

فيها، أو تقرير غيبياتِ ليست من الحسيات والمدركات. فالبيان القرآني في قسمه بالفجر وبالصبح إذا أسفر وإذا تنفس، وبالشمس وضحاها، واللّيل إذا يغشى والنّهار إذا تجلى. يَجلو معاني من الهدى والحق أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتهما. وهذا البيان للمعنوي بالحسي، هو مدار استعمال البيان القرآني للظلمات والنور بمعنى الضلال والهدى " [48].

كما تناولت سرّ البيان في أسلوب السّجع ورعاية الفاصلة بعد أن عرضت أقوال السلف، لتوضّح أنّ مراعاة الجرس لا يكون لذاته، بل لمقتضيات معنويّة في تآلف إيقاعي دلاليّ، " فالبلاغة من حيث هي فنّ القول، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها. كما لا تعتدّ بألفاظ جميلة تضيّع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي. وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعيّة من زخرف لفظي يُكرِه الكلماتِ على أن تجئ في غير مواضعها " [49]. إلى غيرها من الظواهر الأسلوبيّة التي تبيّن بنت الشاطئ سرّها البيانيّ . وأقرّت من خلال مؤلّفها البيانيّ سرّ كلّ حرف ولفظ وتركيب، وإسهامه في البيان القرآنيّ بما لا يقوم مقامه غيره، لتقرّ بعد هذا الجهد وتلك القراءة لأقوال السلف وآرائهم أنّ الإعجاز البياني يفوق القدرات البشريّة، ويتجاوز كلّ محاولة للتّحديد باتّساع أفقه وغنى مادّته، فينفد القول ولا تنفد كلمات الله.

أمّا الجزء الثاني الذي تعلّق بـ"مسائل نافع ابنِ الأزرق " لابن عبّاس –رضي الله عنهما – فلم يخرج كذلك عن منهجها الموضوعيّ الاستقرائيّ الذي يصبّ في رؤيتها للإعجاز البيانيّ . وما بين أيدينا هو النّسخة الثالثة بعد أن تحصّلت على ثلاث مخطوطات في هذه المسائل فعادت إليها على بدء بعد انقطاع بضعة عشر سنة للدّراسات القرآنيّة[50]. وهو محاولة تطبيقيّة في دراسة بيان القرآن الإفراديّ في نحو مائتي كلمة من غريبه تعرِضُ فيها بنت الشاطئ للمسألة فتبيّن السّورة أو مجموع السور الواردة فيها، وكذا الأحاديث وأقوال المفسّرين في معناها، ثمّ تنتهي إلى معنى جامع فيما قاله السلف من العلماء ينجلي من خلالها سرّ اللّفظة واستعمالها القرآنيّ على نحو لم تُسبق إليه .

4-خاتمة:

نصل في خاتمة هذا البحث –من خلال مؤلّفي التّفسير والإعجاز البيانيين لبنت الشاطئ مجال الدّراسة –إلى حصر مجموعة نقاط جامعة لجهود هذه الباحثة والمفكّرة والمفسّرة في الدّراسات الإعجازيّة نعرضها كالآتي:

–تحقّقُ مشروعِ بنت الشاطئ الذي انطلق من نقد واقع الجامعة العربيّة في تلك الفترة، أواخر الخمسينات وبداية الستينات. هذا الواقع الذي تَقِلُّ فيه الدّراسات المتناولة لخصائص العربيّة من خلال كتابها الأعظم، فحاولتْ سدّ هذا الفراغ بكتابها " الإعجاز البيانيّ" الذي كان خلاصة جهود سنوات من حياتها في رحاب القرآن .

–نقلت المؤلّفة النّكت الأسلوبيّة واللّمح البلاغيّة من كتب التّفسير، بعد أن ظلّت طيلة سنوات بين طيّاتها ، لتبسط قضاياها اللّغويّة والبيانيّة في مؤلّفها الإعجاز البيانيّ، جاعلة تلك المادّة وسيلتها لإثبات وتأكيد رؤيتها البيانيّة .

– تحصّنها من مزالق التّأويل وسطحيّة الرّؤية بدراسات السّابقين وبتجربتِها البحثيّة والتّعليميّة في الدّراسات العليا، وبما اعتمدته من منهج أستاذها أمين الخولي الفنيّ وبصرامة المنهج الاستقرائيّ.

– غيّرت بنت الشّاطئ مجرى الدّراسات القرآنيّة من صفة التّقليديّة والأثريّة، فطبعتها بطابع أدبيّ فنيّ تستجلي من خلاله أسرار الصّوت والمفردة والتّركيب بنظرة لغويّة معاصرة، تبحث في دلالات الظّواهر الأسلوبيّة، بطريقة تطبيقيّة على آي التّنزيل لم تتوفّر في المؤلّفات الأولى لدارسي الإعجاز، كدلائل الإعجاز للجرجاني وإعجاز القرآن للباقلاني اللّذين أكثرا من النّماذج الشّعريّة .

– اعتمادها على المنهج الموضوعيّ الاستقرائيّ الذي يتتبّع ورود الشّاهد في الذكر الحكيم والحديث النّبويّ وكلام العرب، كما ظهر في مسائل ابن الأزرق والتّفسير البيانيّ وسرّ الحرف واللّفظة والتّركيب. وهو جهد إحصائيّ شاقّ لا يصل بالبحث إلى نتائج ذات بال، ما لم يطعّم بقراءة هذه النّتائج، وتبيان دلالاتها في سياقها الخاصّ والعام .

–عدم إقصائها لمحاولات السّلف، كما أشارت إلى الدّراسات السابقة التي كان أصحابها يقلّلون من شأن من سبقهم في هذا المضمار، بل كانت هذه المحاولات مادّة خصبة مثّلت الأرضيّة الآمنة حتّى لا تقع في مزالق التّكلّف، اتّخذتها أداتها للتّأصيل لرؤيتها في فهم النصّ القرآنيّ .

– كان لتفسيرها فضل التّفاسير الحديثة، التي حذفت منها الاستطرادات العلميّة والقصص الإسرائيليّة والأحاديث الضعيفة والموضوعة ، التي أقحمت فيها إقحاما كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وصبغت التّفسير بصبغة أدبيّة [51].

–كان بيان القرآن روح دراستها التّفسيريّة والإعجازيّة، دون تعسّف التّأويل، وتكلّف التّخريج، وخارج الخلافات الفكريّة والمذهبيّة .

– مراعاتها في فهم النصّ القرآنيّ لسياق الآية في السّورة الواحدة، وللسّياق العام في كلّ سور القرآن، ولأسباب النّزول وزمن البعثة، ووفق هذه المعطيات يكون ترجيحها لرأي دون آخر، مبرزة الملامح البيانيّة الفنيّة في مراعاة لتناسب آيات السّورة الواحدة والقرآن ككلّ.

وبذلك وضعت عائشة عبد الرحمن محاولتها في الإعجاز البيانيّ إلى جانب محاولات الرّجال من السلف، وكذا الخلف منهم من علماء الإسلام، مناقشة ومرجّحة من غير تكلّف أو تأوّل، تمضي في رؤيتها لخدمة اللّغة العربيّة في كتابها الأعظم. وهي محاولة لا يمكن إغفال دورها في علمي الإعجاز والتّفسير بحلّة فنيّة بيانيّة، عكست قدرة المرأة على الخوض في قضايا الإعجاز التي شغلت السّابقين طيلة أربعة عشر قرنا ، في سعي منها حثيث للفصل في كثير من القضايا، وانتقاء ما تراه خادما لمنحاها الفنيّ.

بنت الشاطئ هي المفكّرة والباحثة التي أفنت عمرها بين يديّ الذكر الحكيم، وهي من قالت عن قضيّة المرأة:" إنّنا لم نكن في حاجةٍ إلى فهم هذه القضية ومثلها كما نحن الآن، إذ يعوز المرأة لكي تعرف حقيقة مكانها في عالم اليوم، وتميّز دورها فيه– أن تستكمل وعيها لذاتها، وأن تفهم مقوّمات وجودها وجوهر شخصيتها، ومحالٌ أن يتحقق شيءٌ من ذلك إذا بُترنا من ماضٍ لنا بعيد طويل، وجهلنا ما تأصل في أعماقنا من تراثٍ لنا، فكري وروحي ومادي– ظل يتناقل جيلًا بعد جيل وخلفًا بعد سلف متغلغلًا في كياننا، متحكمًا في سلوكنا الفردي والجماعي، موجهًا أساليب تناولنا للحياة، وفهمنا لها، وسيرنا فيها " [52]. وهذا ما حاولته بنت الشاطئ بعد أن وعت ذاتها ،وعرفت قدرها ومبتغاها بعلو همّة سمت بها إلى مصاف علماء الإسلام، وهي في كلّ مرحلة من مشروعها البياني في الإعجاز بعد الاطّلاع على محاولات السلف تردّد قولها :

لعلّي أضيف إليها شيئا ذا بال...

5. قائمة المراجع:

[1] – ينظر للاستزادة:–محمد بن رزق بن طرهوني:التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا،دار ابن الجوزي، السعوديّة،ج1،ص 498.

– فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، طبع بإذن رئاسة إدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية ، ط1، 1407هـ– 1986م، ج3، ص 924.

[2]– ينظر: السيد سليمان الندوي الحسيني: سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عربه وحققه وخرج أحاديثه: محمد رحمة الله حافظ الندوي، دار القلم، ط1، 1424 هـ – 2003م، ص 229–240.

– محمد شمس الدين الداوودي: طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت، د.ط.

[3] – ينظر:عادل نويهض: معجم المفسرين –من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، تق: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر،بيروت – لبنان، ط3، 1409 هـ–1988م،ج2،ص725.

[4] – ينظر: مناع بن خليل القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1421،3هـ– 2000م، ص385.

[5] – صدر الجزء الأوّل للتفسير البياني في طبعته الأولى سنة 1962، في حين صدر الجزء الثاني منه بعد انقطاع سنوات سنة 1977م. أمّا الإعجاز البيانيّ فكان الجزء الأوّل منه جمعا لدراسات قرآنيّة شاركت فيها في مجموعة مؤتمرات ما بين 1965–1968. أمّا الجزء الثاني منه فخصص لمسائل ابن الأزرق والذي بين أيدينا هو نسخته الثالثة التي صدرت بعد ما يزيد عن عشر سنوات بعد أن تحصّلت على ثلاث مخطوطات.

[6] – عائشة محمد علي عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار النشر: دار المعارف، القاهرة، ط7، ج1، ص 13.

[7] – نفسه، ج1، ص 14.

[8] – أمين الخولي: كان أستاذا بكلية الآداب بالجامعة المصرية فرئيسا لقسم اللّغة العربية واللغات الشرقية وغيرها من المناصب التي شغلها. أنشأ هو وتلاميذه سنة 1943م مدرسة أدبية هي "الأمناء" نسبة إليه، رسالتها الفن والحياة. له مقالات وبحوث في اللّغة والأدب والبلاغة والنحو والتفسير، وجمع أكثرها في كتاب اسمه "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب والتفسير" وطبع تعليقه على مادة "تفسير" مستقلا مرة بعنوان "التفسير معالم حياته منهجه اليوم" كما له كتاب "من هدي القرآن". ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،ج3، ص905–906.

[9] – عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، ج1، ص 14.

[10] – ينظر: – نفسه، الصفحة نفسها.

– فهد بن سليمان الرومي: اتجاهات التفسير، ج3، ص 861–429.

[11] – أمين الخولي: التفسير معالم حياته منهجه اليوم، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة، د.ط، سنة 2003م،ص34–35.

[12] – ينظر: – بنت الشاطئ: التفسير البياني،ج1، ص 13.

– فهد بن سليمان الرومي: اتجاهات التفسير، ج3 ص 885.

[13] – بنت الشاطئ: التفسير البياني، ج1، ص 26.

[14] – نفسه، ج2، ص 29.

[15] – ينظر: عادل بن محمد أبو العلاء: مصابيح الدّرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع129، 1425هـ، ص 48– 50.

[16] – حنفي محمد شرف: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، ط1، 1970، ص03.صدر هذا الكتاب كما تشير الطبعة الأولى سنة 1970 ولم يذكر إسهام بنت الشاطئ الذي أصدرته في الإعجاز.

[17] – حنفي محمد شرف: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، ص 375.

[18] – ينظر: – بنت الشاطئ: التفسير البياني، ج2، ص 13.

– فهد بن سليمان الرومي: اتجاهات التفسير، ج3 ص 882.

[19] – بنت الشاطئ: الإعجاز البيانيّ، ج1، ص 11.

[20] – نفسه، ص 34.

[21] – نفسه، ص 40.

[22] – . أبو بكر محمد الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر،ط5، 1997م،ص28–29.

[23] –ينظر: نفسه، ص 113.

[24] – بنت الشاطئ: الإعجاز البيانيّ، ص 44.

[25] – نفسه، ص 45.

[26] – نفسه، ص 54.

[27] – ينظر: نفسه، ص 55– 56.

[28] – أبو عبد الله محمّد البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، رقم الحديث 4981، باب كيف نزل الوحي وأوّل ما نزل،ج6، ص182.

[29] – ينظر: بنت الشاطئ: الإعجاز البياني، ص 79– 89.

[30] – ينظر: نفسه، ص 91–93.

[31] – أحمد جمال العمري: أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط9، ع3، 1396هـ – 1976م، ص 17.

[32] – ينظر: بنت الشاطئ: الإعجاز البياني، ص 94.

[33] – ينظر: نفسه، ص 95.

[34] – ينظر للاستزادة: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيّة والنقد الأدبي، تح: محمد خلف الله أحمد وَ محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت، ص 21– 75.

[35] – بنت الشاطئ: الإعجاز البياني، ص 102– 103.

[36] – نفسه، ص 119.

[37] – نفسه، ص 124.

[38] – نفسه، ص 135.

[39] – نفسه، ص 158.

[40] –نفسه، ص159.

[41] –نفسه،ص 160.

[42] – نفسه . ص 160.

[43] –نفسه، ص 161–162.

[44] – نفسه، ص 179–180

[45] –نفسه،ص 180.

[46] – ينظر للاستزادة: نفسه، ص 181– 207.

[47] –نفسه، ص 238.

[48] – نفسه، ص 248.

[49] – نفسه، ص 278.

[50] – نفسه: الإعجاز البياني، ص 12–13.

[51] –محمد السيد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ط، د.ت، ج2، ص 393.

[52] – سلمان بن حمد العودة: شعاع من المحراب، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط2، 1434 هـ – 2013م، ج4، ص 260.